(نصف حياة) نايبول:

إشكالية العلاقة بين روحانية الشرق وبراغماتية الغرب

ابراهيم حاج عبدي
دمشق

يمكن تصنيف رواية "نصف حياة" للروائي الفائز بجائزة نوبل للآداب ٢٠٠١ ف.س نايبول والصادرة في ترجمة عربية وقعها عابد إسماعيل عن "دار المدى" (دمشق،٢٠٠١) ضمن تلك الروايات التي تطرقت إلى قراءة العلاقة الإشكالية بين الشرق بروحانيته وسحره وطقوسه الغريبة من جهة، والغرب بماديته ووضوحه وبراغماتيته من جهة أخرى،

لكن هذه الثنائية التي طالما قاربتها النصوص الروائية لا تشكل الهاجس الرئيس لهذه الرواية، فهي رواية أمكنة، وشخصيات وحالات أقرب إلى "أدب الرحلات" تحاول رسم صورة لشخصية نهلت من ثقافات عدة، وتنتمي لأسرة جعلته يعيش مشاعر متضاربة تنزع نحو "قتل الأب" و"حتى الحب الذي شعر به تجاه والدته كان مملوءاً بالألم".فنحن حيال بطل يحاول التخلص من إرثه الثقيل، ويبحث عن صوته الخاص وسط صخب الأمكنة التي عاش فيها والتي منحته "نصف حياة" في كل محطة. إنه ويلي تشاندران صاحب الطموح والأحلام، لكنه لا يستطيع أن يصوغ أمنية بعينها "فالحياة تنصب له شراكها القاسية"، ولا تترك له فسحة واعية لأن يسأل نفسه عما حققه، وإلام يهدف؟ الأقدار تقود خطوته، وهو مستسلم من دون تذمر للإصغاء إلى ما تمليه عليه نوائب الدهر ومباهج اللحظات العابرة.

رواية "نصف حياة"، تقدم سيرة ويلي تشاندران، فتسرد في القسم الأول طفولته حيث يقوم والده هنا بدور الراوي على إثر سؤال وجهه له الابن حول سبب اسمه الأوسط "سومرست" وهو كاسم الكاتب الإنكليزي "سومرست موم"، يفتح هذا السؤال شهية الوالد الذي راح يروي لابنه ويلي حكايات الطفولة وأيام الشقاء وشعوره بالاضطهاد "بسبب فراغ عالمنا وخنوع حياتنا". وذكر الابن بما كتبه عنه سومرست موم بعد زيارة قام بها الأخير إلى بلادهم الهند، وكيف أنه استجاب لنداء المهاتما، وأضرم النار في أشعار شللي، وكيتس، ووردزورث مقاطعاً الثقافة الإنكليزية، ومقرراً أن يجعل من نفسه أضحية، وعزمه على الزواج من أدنى امرأة يمكنه العثور عليها، وهي "فتاة المنحة" التي ستصبح والدة ويلي.

وحين يروي الوالد كل ذلك يصف مشاعره آنذاك: "كنت مثل طفل يرى السماء معكوسة في بركة بعد المطر، وسمحت لقدمي أن تلمس البركة، راغباً في أن أشعر بالخوف حيث أنا آمن، وعلى أثر تلك الملامسة ارتدت علي البركة فيضاناً كاسحاً يجرفني سيله الآن... ولم يعد العالم مكاناً عادياً مملاً.. بل مكاناً تجري فيه سيول سرية يمكنها في أية لحظة أن تجرف معها الغفل".

إن القناعات التي آمن بها الأب، وحياة التضحية التي عاشها لا تستهويان ويلي الذي يبحث عن مخرج من هذه المتاهة، فيرسله والده بمساعدة صديق له إلى لندن، وهنا تبدأ ملامح حياة أخرى بالتشكل فنقرأ كلمات الراوي المجهول، بضمير الغائب، وهو يروي فصولاً من حياة ويلي في هذه المدينة التي شعر فيها بأنه "يسبح في الجهل وبدأ ويلي يدرك أنه حر في تقديم نفسه بالطريقة التي يرغب". إن مدينة لندن التي قدم إليها ويلي في النصف الثاني من القرن العشرين لا تشبه مطلقاً تلك البلاد التي غادرها، فهو يجد هنا ثقافة مختلفة، وشخصيات جديدة، ويقيم علاقات صداقة مع زملاء في الكلية، ومحامين وناشرين ويتأقلم مع هذا المناخ الجديد المنفتح على أكثر من صعيد والذي يتيح له إقامة علاقات عاطفية - جنسية مع الفتيات هو القادم من بيئة تنظر إلى مثل هذه العلاقات على أنها خطيئة.

إن ما يؤرق ويلي في لندن هو السؤال الذي يلح عليه، إلى أين سيمضي بعد أن ينهي دراسته؟ وهنا تظهر في حياته الفتاة الأفريقية المنحدرة من أصول برتغالية آنا التي أعجبت بقصصه، فيقرر ويلي الذهاب معها إلى بلدها الأفريقي البعيد لتكون أفريقيا، هي المحطة الثالثة في حياته، والتي حين وصل إليها راعته غرابة المكان وقسوته، فقال: "لا أريد لهذا المنظر أن يصبح مألوفاً، يجب ألا أتصرف وكأنني سأمكث هنا" لكنه مكث في هذا المكان مدة ثمانية عشر عاماً حيث يقوم ويلي بسرد هذه الحياة الأفريقية بضمير المتكلم لشقيقته ساروجيني في برلين حيث تزوجت من ألماني في القسم الثالث والأخير من الرواية، فهو يفتش الآن في ذاكرته ليلتقط شذرات من حكايات عاشها في ذلك البلد الأفريقي، بلد زوجته آنا، الذي كان يسوده المناخ الكولونيالي وتعيش فيه شخصيات غريبة، متمردة، تبحث عن أمجاد دفنت تحت رمال تلك البلاد التي خَبِرها ويلي طويلاً واستطاع أن يُعيد تفاصيل حياته في الأرياف والمزارع والحانات الليلية، وأن يرصد حياة الأفارقة بعنفوانها ونزقها وقسوتها، من دون أن ينسى خصوصية المكان بنباتاته ومناخه ومفرداته التي شكلت له عالماً غاب فيه فترة طويلة ليقرر ترك زوجته في النهاية والبحث عن مكان يحتضن ويلي الفرد الذي تلاشت حياته في حيوات الآخرين.

يبتعد نايبول في روايته هذه عن الإنشاء والتطويل، ولا يجنح مع المخيلة، بل إن لغته وعوالمه شديدة الالتصاق بالواقع، وهو يختار جملته في تكثيف ودقة محاولاً تدويل الشيء الرئيس في ملامح الشخصيات، وتفاصيل الأمكنة، وهو رصين في سبر نفسية بطله ويلي، الذي يحاكي في هذه الرواية سيرة الروائي ف.س نايبول نفسه الذي ولد في ترينيداد عام ١٩٣٢ ونال جوائز عدة إثر مجموعة من الكتابات النقدية والروايات منها: "بيت للسيد بيسواس" (١٩٦١)، "في بلد آخر" (١٩٧١)، "منعطف النهر" (١٩٧٩). ولعل مما يلفت النظر في الرواية التي نحن بصددها هي تلك التقنية الفنية التي يسند فيها نايبول مهمة القص إلى أكثر من راوٍ وكأنه يستشهد بأكثر من صوت حتى يستطيع تقديم الصورة الكاملة لويلي تشاندران.

قصة قصيرة جداً

يقظة الزمن الدفين تنتظر

زيد الشهيد

لو قدر لها النهوض والتحرك لاختارت جهة النهر، وخلفت عالمها المحنط مستعينة بالماء وجهاً تحاوره وروحاً تبثه آهات السنين المتهافتة بجمود سرمدي جاثم، تسأله عن فحوى الأمر وما آل إليه حال الحبيب الذي تركت لديه أنفاس اللقاءات الحميمة، ثم طفقت بعد زمن تتساءل: أين أصبح؟ وماذا جرى له؟ أما زال يتكئ على أحاديث تحاورا خلالها عن مستقبل رسماه وصمما على أن يجسداه ارتشافاً، أم إن ذلك غدا من حكايا النسيان؟

سمعت تعثرات خطى فاستدركت أمراً.. تنصتت لتتسمع.. وصلتها ضربات معاول تجاور القبر، وهمهمات تتبعها تمتمات.

صوت رجل يخاطب فتى:

-هيا أسرع، إنهم على وشك الوصول.

فيجيبه الفتى:

-قالوا عنه متوسط القامة.. إذا كان كذلك سننتهي من الحفر قبل وصولهم.. سنرضيهم و... ولم تسمع بقية الكلام. ضاع وسط تصادم شفرة الفأس بصلابة الأرض.

همست في سرها:

-من يكون؟.. فتواردت أسئلة صدى يملأ البرية ويشيع:

من يكون.. من يـ..

استمرت منصتة تطرد ثقل الأعوام وتجاهد لنيل وعي يبقيها عائمة في هلام تجلي الموقف.

-ها هم قادمون.. أبصرهم من بين الشواهد.. ألم تكمل بعد؟..

ارتفع لوم الرجل، فرد الفتى من عمق الحفرة المستطيلة بصوت كأنه آت من غور سحيق:

-نعم، الآن تم كل شيء.. ألا تنزل معي؟

تذكرت وداعها الأخير له، مثلما أعادت مشهد دمعتين نزلتا كحبتي غيث من عينيه وكلاماً بلون الوفاء الخالص يقول: "بعدك لن يكون لها طعم. ولست بمتأخر عليك"..

وظلت تعوم في سراب الانتظار.. لا تدري كم طالت أذرع الزمن، وما عدد السنين التي تعاقبت، سوى أنها كانت تستيقظ على انهيال معاول هنا وهناك، أدنى حدود المقبرة فتفز لديها جملة الأسئلة المعادة: "من يكون؟.. هو أم غيره؟.. هل هو الآن بذلك البهاء كما تركته أم" يا دار كم فعلت بك الأيام؟. (لقد اعتادت النهوض مع آخر كف تهيل حفنة التراب فتروح تبحث في يباب البرية بين الموتى الجدد لعلها تراه فترتمي عليه، تولي لرأسها مهمة الاتكاء على صدره، ثم الانطلاق بوحاً مفضية الم الفراق، ورهبة الوحشة، وثقل اللحظات).

تناهى صوت الرجل مرحباً مقدماً كلمات العزاء المعهودة، ثم متحركاً استعداداً لإيلاج الضيف في حفرة المنتهى استعانة بالفتى وفق التقليد الذي حفظه ومارسه باضطراد..

أرهفت أقصى مجسات السمع سعياً للتعرف على اسم الراحل من أفواه المشيعين فربما يكون هو.. لكن الوجوم كان صفة المتحلقين، والصمت يهمي رذاذ سطوته في فضاء النفوس جاعلاً الموقف جللاً، تاركاً الجميع في اكتناف الذهول.

وكان عليها - كآخر رجاء - التقاط كلمات الدعاء التي ستندفع من فم الرجل الدفان يعلن الاسم واسم الأم لتدرك حينها صدق وعد قطعه لها، وإلا سيطعن قلب أملها بخنجر الخيبة وتتهالك واهيةً خاوية فكرة اللقاء الأبدي لحبيبين تعاهدا على الوفاء صدقاً والتزاماً.

الشيخ زايد دَعمَ مبادرة المجتمع العلمي العربي

محمد عارف

لماذا يستغرق تدريب الصقر البري في انجلترا خمسين يوماً، في حين يدربه العرب في غضون أسبوعين، أو ثلاثة؟ الجواب: لأنهم لا يفارقونه على الإطلاق. اكتشف ذلك الرحالة البريطاني ويلفرد ثيسجر خلال حضوره أمسيات المغفور له الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان في قرية "المويجعي" في منتصف القرن الماضي. يروي ثيسجر في كتابه "الرمال العربية" كيف يحمل المدرب الصقر معه في كل مكان. يتناول الطعام مع الصقر على معصمه، وينام والصقر جاثم على وتد "الوكر" قرب رأسه، يتلمسه دائماً، يحادثه ويضع الغطاء على رأسه ثم يكشفه.

بعد مرور نصف قرن على ذلك حمل ممثلو المجتمع العلمي العربي كالصقر مبادرتهم داخل الإمارات العربية المتحدة. ففي العام ٢٠٠٠ أنشأ علماء من داخل وخارج العالم العربي "المؤسسة العربية للعلوم والتكنولوجيا". وفي السنة التالية لإنشائها أصيب التعاون العلمي العربي الدولي بأخطر أزمة في تاريخه. كارثة ١١ ايلول المفجعة في نيويورك وواشنطن وقعت مباشرة بعد عقد المؤسسة برامج تعاون مع جامعات ومراكز بحوث رئيسية في القوة العلمية العظمى أميركا. وهدد الفشل المؤتمر العام للمؤسسة، الذي يعقد كل سنتين، تحت عنوان "ندوة البحث العلمي والتطوير التكنولوجي في العالم العربي". آنذاك حظيت المبادرة بدعم الشيخ زايد، رحمه الله، فاستهلت الندوة بتنظيم أول ملتقى للحوار بين ممثلي المجتمع العلمي العربي والأميركي. عقد الملتقى في (أبوظبي) في ٢٣ آذار عام ٢٠٠٢، وساهم فيه ٥٠ عالماً ومسؤولاً علمياً. بين العلماء: عالم الطب العراقي صالح الوكيل، عضو "الأكاديمية القومية للعلوم"، المعروف باكتشافاته بالإنزيمات، وعالم الفضاء المصري فاروق الباز، الذي ساهم ببرامج "أبولو" للهبوط على سطح القمر، وعالم الفيزياء الفلسطيني منير نايفه، الذي قام لأول مرة في تاريخ العلم بتحريك الذرات المنفردة، وعالم البيولوجيا العراقي فخري البزاز، الذي اكتشف آثار الاحترار العالمي على الزراعة. ومن صانعي السياسات العلمية المساهمين في الحوار: نورمان نويريتر، مستشار العلوم والتكنولوجيا لوزير الخارجية الأميركي كولن باول، وصالح العذل، رئيس "مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية"، ومحمد بن أحمد، وزير التكنولوجيا السابق في تونس، وعلي الشملان، رئيس "مؤسسة الكويت للتقدم العلمي"، ومعين حمزة، الأمين العام لـ"مجلس البحوث العلمية في لبنان"، وطه النعيمي، أمين عام "اتحاد مجالس البحث العلمي العربي"، وجون بورايت، مسؤول العلاقات الدولية في "الأكاديمية القومية للعلوم"، وعثمان شنيشين، مدير برامج "المؤسسة القومية للعلوم"، وهي أغنى مُموّل حكومي للبحث العلمي في الولايات المتحدة والعالم.

واختار ملتقى الحوار أجندة مختلفة عما سعت واشنطن لفرضه على العالم العربي والإسلامي عقب حوادث ١١ ايلول. بدلاً من الإرهاب ناقش الملتقى مواضيع تكامل الحضارات في المجال العلمي والتكنولوجي، وشبكات ربط مراكز البحوث في العالم العربي بنظيراتها في أميركا، ودور المجموعات الاستشارية في توعية الحكومات بأهمية العلوم والتكنولوجيا، ومشاريع دعم الباحثين والعلماء الشباب، وربط الأكاديميين بالصناعة والأعمال، والتعاون العربي الأميركي في مجال التعليم وتبادل الطلاب، والتعاون العلمي العربي الأوروبي، وبرامج الاستفادة من العقول العلمية المهاجرة.

وكمدرب الصقور تمسّك المجتمع العلمي العربي بالندوة أمام نُذر كارثة الحرب المقبلة آنذاك على العراق. ١٨ منظمة علمية عربية ودولية، و٥٠٠ عالم وباحث ومسؤول علمي ساهموا في محاور عمل الندوة. عُقدت المحاور في المدينة الجامعية بالشارقة، حيث مقر "المؤسسة العربية للعلوم والتكنولوجيا"، التي يرعاها الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، حاكم الشارقة، وعضو المجلس الأعلى لاتحاد الإمارات العربية المتحدة. محور "الاستراتيجية العربية للعلوم والتقانة" رأسه المنجي بوسنينة، المدير العام لـ"المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم" (أليكسو)، التي أشرفت على الاستراتيجية، وساهم فيه العالم السوري واثق عبد الله شهيد، رئيس اللجنة التي وضعت الاستراتيجية في ثمانينيات القرن الماضي. ومحور أول قمر صناعي عربي للبحث العلمي، أشرف عليه العالمان السعوديان تركي بن سعود آل سعود، ومحمد السويل، نائب رئيس "مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية"، التي صنعت القمر العلمي.

ولأول مرة في تاريخ العلوم خُصّص محور لموضوع المجتمع العلمي العربي، ساهم فيه أبرز المفكرين في قضايا العلوم والتكنولوجيا العربية: العالم الفلسطيني أنطوان زحلان، أستاذ ورئيس قسم الفيزياء سابقاً في الجامعة الأميركية في بيروت، والعالم المصري رشدي راشد، أستاذ الرياضيات سابقاً في جامعة طوكيو، والباحث في المركز القومي للبحث العلمي في فرنسا. وعالجت الندوة لأول مرة أيضاً في تاريخ المنطقة تجارب إدامة البحث العلمي والتطوير التكنولوجي في الظروف الاستثنائية. عرض تجربة العراق سعد خليفة، مستشار وزارة التعليم العالي والبحث العلمي في العراق آنذاك، وتجربة فلسطين منذر صلاح، وزير البحث العلمي الفلسطيني، وتجربة ليبيا معتوق محمد معتوق، أمين اللجنة الشعبية للهيئة القومية للبحث العلمي في ليبيا.

وعقد أول ملتقى لنساء العلم والتكنولوجيا في العالم العربي، ساهمت فيه عالمة الفلك السورية شادية رفاعي حبّال، وعالمة الصيدلة السعودية سميرة إبراهيم إسلام. وعُقد على هامش الندوة اجتماع مشترك للعلماء ورجال المال والأعمال العرب، شارك فيه جمعة الماجد، وهو من أبرز رجال الأعمال في الإمارات العربية المتحدة، ويوسف جميل، من "مجموعة عبد اللطيف جميل"، التي تعد من أكبر بيوتات الأعمال في السعودية. كما شارك في الاجتماع ممثلو القطاع الاقتصادي المختلط، وبينهم الشيخ طارق بن فيصل القاسمي، رئيس دائرة التنمية الاقتصادية لحكومة الشارقة، وأحمد بن بيات، مديرعام سلطة منطقة دبي الحرة للعلوم والتكنولوجيا.

وصدرت ملفات عدة عن الندوة في دوريات عامة ومتخصصة عربية ودولية، كصحيفة "الشرق الأوسط"، ومجلة "نيتشر" Nature، وهيئة الإذاعة البريطانية "بي بي سي أونلاين". لكن الكلام وحده لا يدرب الصقور ولا ينتج علوم وتكنولوجيا. فالعمل الأساسي للندوة كان تطوير برامج عمل متخصصة لأربعة محاور علمية تحدد مستقبل المنطقة: محور التكنولوجيا الحيوية والطب، بإشراف العالم اللبناني أمين أرناؤوط، أستاذ كلية الطب في جامعة هارفرد، ومحور الطاقة والمياه، بإشراف العالم الفلسطيني مُجيد كاظمي، أستاذ الهندسة النووية في معهد ماسشوستس للتكنولوجيا MIT، ومحور تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات، بإشراف العالم الجزائري كمال يوسف تومي، أستاذ علم الروبوت في معهد ماسشوستس للتكنولوجيا، ومحور المواد الجديدة، بإشراف العالم المصري محمود الشريف، أستاذ علوم المواد في جامعة دركسيل في الولايات المتحدة. ويشغل علماء الداخل ما يزيد عن نصف عدد أعضاء هذه المحاور، التي تخدم كقنوات للتفاعل العلمي ونقل التكنولوجيا وتوطينها في العالم العربي.

والسؤال الآن: متى يُطلق المجتمع العلمي العربي، الذي حظي بدعم الشيخ زايد رحمه الله، صقر العلوم والتكنولوجيا العربية؟ الجواب في رسالة قادمة إن شاء الله من "ملتقى الاستثمار في التكنولوجيا". يُعقد الملتقى الشهر المقبل في جده بالمملكة العربية السعودية تحت شعار "الابتكار عربياً، المنافسة عالمياً"، ويشارك في تنظيمه "البنك الإسلامي للتنمية"، و"الغرفة التجارية الصناعية بمحافظة جدة".